حدود علم الفولكلور (*)

المشرف على تحرير : ويليام باسكوم
عرض : عبد الله لؤلؤ

الكتاب الذى نعرض له يعالج عديدا من القضايا الجوهرية التى تمس بعض الموضوعات النظرية والمنهجية فى علم الفولكلور ، تلك الموضوعات التى ينبغى أن تنال من المشتغلين بالدراسات الفولكلورية ذوى الاتجاهات المتعددة ــ الأدبية منها والانثروبولوجية بوجه خاص ــ قدرا من الاهتمام ، وقسطا وفيرا من التمحيص ، أملا فى ان يشهد هذا العلم مزيدا من التقدم ، وتزداد أقدامه رسوخا فى مجال العلوم الاجتماعية .

وتبلغ صفحات هذا الكتاب حوالى مائتى صفحة تشتمل على خمس مقالات ، يعالج كل منها موضوعا او اثنين من الموضوعات التى المحنا اليها . ونود ان نشير الى ان هذه المقالات هى عرض لوجهات نظر بعض الفولكلوريين الاكاديميين ، بعضها نعرض له بصورة مفصلة بعض الشىء ، والآخر نسرده فى ايجاز .

وفى المقالة الاولى التى أوردها وليام باسكوم ، يوضح الموقف الحالى لعلم الفولكلور فى الجامعات الاوروبية ، والتطور الهائل الذى طرأ على البرامج الدراسية فى تلك الجامعات ، والعدد المتزايد للدرجات العلمية التى حظى بها كثير من الفولكلوريين فى مختلف التخصصات ، ومن بينهم دن بن أمـوس وهارولد شيب اللذان نعرض لبعض آرائهما الواردة فى هذا الكتاب .

وقد حاول وليام باسكوم أن يوضح القضايا الأساسية عن طريق استعراض تاريخى للنظريات الفولكلورية منذ بداية القرن التاسع عشر ، واهم القضايا الاساسية التى اثيرها تلك النظريات ، ويمثل هذا العرض فى الوقت نفسه اجابة على عديد من التساؤلات التى طرحها باسكوم حول الحكايات الشعبية . ومن بين هذه التساؤلات : كيف يمكن تفسير الحكايات المتشابهة فى مجتمعات مختلفة : هل هذه الحكايات انتشرت مع الانسان

---

* W. Bascom, ed., Frontiers of Folklore, 1977.

منذ بداية البشرية ؟ هل تفسر فى ضـــوء الوحدة النفسية للبشرية ؟ أم فى ضـــوء الصـــدفة التاريخية ، أم فى ضـــوء الانتشـــار او الاستعارة او الهجرة أو الاختراع (النشأة) المستقل ؟

وقد أشار باسكوم الى جهـــود عـــديد من الفولكلوريين الـــذين قدموا تفسيرات عديدة لمثل هـــذه التساؤلات ومن بينهم الأخوان جريم ؛ ويتودور بنفى ممثل المدرســـة الانتشارية وخلفه ايمـــانويل كوست . وأكـــد على أنهما جذبا الانتباه الى عملية الانتشار الهامة ، وهـــذا هو اسهامهما الرئيسى . ثم أورد اراء مدرســـة الاستعارات الرمزية ، واكد على ان آراءها لم يكتب لها البقاء نظرا للتعارض القائم حول التفسيرات التى تقدمهـــا ، هـــذا فوق أنه لا يوجـــد برهان يدعم أفكار رواد هـــذه المدرسـة . ثم نوه بعـــد ذلك الى جهـــود المدرسة الأنثروبولوجية ورواداها تايلور ، وفريزر وركز على آراء فرانز بواس الذى أورد تفسيراته للقصص والحكايات الشعبية نتيجة لدراسته لثقافات التسمشيان والكواكتيل . ثم أوضـــح كيف انها تعكس ثقافاتهم ، وتعطى صورة ثاقبة لحياتهم . وفى موضـــع آخـــر يشير باسكوم الى التحليل البنائى الذى يعد أكثر الاتجاهات تطورا ، وركز على آراء المدرســـة الفنلندية التى يتزعمها فيلاديمير بروب وأوضح منهجه فى دراســـة الحكايات الشعبية . واشـــار الى أن ذيوع التحليل البنائى فى دراســـة الأدب الشعبى . ومن بين المستخدمين له كل من آلان ونديس ، وماراندا س Marandas .

وعن الوظيفية يشير باسكوم بالتفصيل الى أن عناصر الفولكلور وخاصة ما يعرف منها باسم Verbal Arts (الفن القولى) لها وظائف عـــديدة تختلف من مجتمع الى آخر ، ومن جيل الى جيل وهذه الوظائف تتجاوز التسلية البسيطة التى تعد واحدة من الوظائف الرئيسية . وقد أعطى أمثلة لوظائف الأساطير ، الأمثال والخرافات الروائية . وهذه تتمثل فى مجـــال التربية خاصة فى المجتمعات البدائية ، وانها تساهم فى نقل الثقافة من جيل الى جيل ، وتقدم على انها شكل من أشكال الضبط الاجتماعى ، وتقـــدم كوسيلة للاطراء على الذين يتواءمون مـــع المعايير الثقافية ولذم الـــذين ينحرفون عنها .

وقد قدم باسكوم بعد عرضه لهذه الآراء بعضا من الملاحظات تعـــد فى جوهرها لب القضايا المثارة ، ذلك أنه راى أن رواد تلك المدارس المتعددة لم يلقوا بالا الى العديد من العناصر الفولكلورية مثل الطب الشعبى والرقص

الشعبى والعادات الشعبية وغيرها من العناصر التى يدرجها الفولكلوريون ضمن علمهم . ورأى أنه لم تنجم عن هذه الموضـــوعات أية نظرية يمكن مقارنتها بنظائرها الموجودة فى الفولكلور القصصى . وأن الاهتمام بها لم يتجاوز البحث عن أصولها وتطورها .

كما أكد باسكوم على أن هذه المدارس فى تناولها للعناصر الشعبية قـــد أولت اهتماما متزايدا للنصـــوص (Texts) فقط ، فى الوقت الـــذى اغفلت فيه السياق الثقافى ـــ الاجتماعى الذى وردت واستخدمت فيه تلك النصوص . واشار الى أن الأنثروبولوجيين لم يغفلوا هذا الموضـــوع ، واعطى مثالا لدراسة مالينوفسكى لوظائف الأساطير فى ثقافات التروبرياند ، اذ اهتم بأداء وسياقات الموضوعات القصصية . كما اهتم ببيان كيف تعكس النصوص المسجلة بناء خط الانتساب الأمومى فى المجتمع التروبرياندى .

ونوه باسكوم فى النهاية الى ضرورة التعاون بين الفولكلوريين ذوى التخصصات المختلفة ، الأمر الذى يساعد على اعطاء علم الفولكلور مكانة اكثر تميزا ، وذلك عن طريق مجالات جديدة يمكن عن طريقها سد الفجوات القائمة بين تلك التخصصات ، والاهتمام المشترك بالمشاكل الشـــائعة ، وهذا ـــ فى رأيه ـــ أجدى مما كان فى الماضى من الاهتمام بتناول ودراسة موضوعات عقيمة .

وفى الفصل الثانى يطرح آلان دندس موضوعا هاما وجديرا بالاهتمام، ويشـــير الى أنه مـــن أهم القضايا المحورية فى علم الفولكلور . ويتعلق بالاستفسار عن الجماعات الشعبية ، أو بمعنى آخر عن مفهوم «الفولك»(x) Who is Folk ? ويتساءل هل هذا المفهوم يقصد به الريفيون الـــذين درسهم جريم فى بدايات القرن التاسع عشر ؟ . ومن المعروف أن الاستعمال السائد لكلمة « شعب » يشير بصفة عامة الى الجماعـــة الصغيرة ، او الجماعـــة التى يرتبط أفرادهـــا بمصـــالح مشتركـــة ، أو عـــامة الشعب او الفـــلاحين . ويـــرى دنـــدس أن قبـــول هـــذا التعريف يشـــير الى بعض الصعوبات ، اذ أنه يحدد بشكل تعسفى ميدان علم الفولكلور ، ويربط ربطا عاطفيا بين أفكار بدائى ، وريفى ، وقومى .

(x) يمكن الرجوع الى : ايكه هو لتكرانس . « قاموس مصطلحات الانثولوجيا والفولكلور » ترجمـــة الدكتورين محمـــد الجوهرى ، وحسن الشامى دار المعارف ، الطبعـــة الثانية ١٩٧٣ ، للوقوف على تعريفات متعددة لمفهوم « فولك » ، ص ص ٢٣٠ ـــ ٢٣٧ .

ويشير دندس الى أن الصعوبة القائمة فى استخدامات مفهوم القرن التاسع عشر تكمن فى استخدامه على أنه تابع اكثر منه مستقل . فقد استخدم فى تناقض مع جماعة سكانية أخرى ، اذ نظر الى الشعب على أنه جماعة من الناس يشكلون الطبقة الدنيا فى مقابل الطبقة العليا او الصفوة فى المجتمع . ويؤكد دندس على ان هناك ترويجا لهذا المفهوم خاصة من جانب الذين يدعون الى التميز بين المجتمعات،وخص بالذكر روبرت ردفيلد وجورج فوستر . ويشير بعد ذلك الى أنه لوقبل الفولكلوريون المعاصرون مفهوم القرن التاسع عشر الضيق للشعب على أنه « امى ، ريفى ، متخلف » . وخاصة فى تلك الأوقات الراهنة بعد أن أصاب التروبين التغير نتيجة للتصنيع والتحضر . واصبحوا على الأقل متأثرين بالمراكز الحضرية مما ادى الى تغيير سماتهم وخصائصهم الثقافية . . هل ستصبح دراسة « الشعب » مسألة وقتية ، وبالتالى يتعرض مستقبل علم الفولكلور لأزمات حرجة ؟

ويورد دندس اجابته عن ذلك باشارته الى مفهوم يعتبره اكثر رحابة . وبناءا عليه ستصبح هناك امكانية لدراسة الثقافات الشعبية فى الولايات المتحدة ، كندا ، وأوروبا ، تلك الثقافات الحالية ، والتى فى طريقها الى البعث . اذ يحدد مفهوم الشعب على أنه « جماعة من البشر تشترك على الأقل فى عنصر واحد مشترك ، ويربط بينها عامل أو اكثر من عامل قد يكون اللغة ، المهنة ، الدين ، وهذه الجماعة يكون لديها تراث خاص بها . وقد تكون أمة او اسرة ، او اقليما ، او دولة ، او مدينة ، أو قرية . ويؤكد على أن هذه الجماعة تتكون من عديد من الأفراد ، الذين لا يعرف بعضهم البعض الآخر ، ولكنهم على معرفة وثيقة بجوهر التراث المشترك الذى تمتلكه تلك الجماعة ويضفى عليها طابعا خاصا . كما أن الدارس لهذه الجماعة لايهتم بالأفراد فى ذاتهم ، ولكن بتراثهم المتمثل فى الحكايات ، الأساطير ، الأغانى ، الامثال . . الخ تلك التى يشاركون فيها بطريقة جماعية .

ويشير دندس بعد ذلك الى أن التصنيع يساعد على خلق جماعات جديدة . تساعد على الاقلال من عدد الفلاحين ، الذى يشكلون فى ذلك الوقت نمطا واحدا من الشعب . وهذه الجماعات ليست ريفية ولاتشكل طبقات دنيا كما كان الأمر فى القرن التاسع عشر ، بل ان بعضها أو معظمها ينتمى الى الطبقة الوسطى الحضرية ، ويصبح لها فولكلورها الخاص ، وبالتالى يمكن الحديث عن الشعبية الريفيه وكذلك الشعبية الحضرية (فولكلور المدينة) .

وعن العلاقة بين الفولكلور والتكنولوجيا يدحض دندس الافكار الذاهبة الى أن التكنولوجيا تعد من العوامل التى تساعد على اختفاء وتدهور ميدان الدراسة فى علم الفولكلور مبررا ذلك بأن تكنولوجيا الاتصال (تليفزيون ، راديو ، ..) قد ساعدت على سرعة انتقال العناصر الفولكلورية من أماكن متعددة . وفوق ذلك فان التكنولوجيا نفسها قد اصبحت موضوعا للفولكلور ، فالعلماء التجريبيون ، والمهندسون يشكلون جماعات شعبية لها فولكلورها الخاص ، وبالتالى تخضع للدراسة من جانب علم الفولكلور .

وفى الفصل الثالث يعالج دن بن آموس موضوعا هاما يتعلق بدراسة الفولكلور فى سياقه الثقافى — الاجتماعى . ويرى بن آموس انه بالامكان فهم الفولكلور على انه نسق ثقافى ذو مبادىء تكاملية تميزه . وهى مبادىء خاضعة للكشف والتحليل ، كما تمثل نقلة انتقال من المجال التاريخى والمقارن الى الفولكلور الوصفى (وصف الفولكلور فى سياقه الثقافى) .

ويؤكد على أن كلمة سياق Context تشير الى الاطار الثقافى العام الذى تحدث وتستخدم فيه العناصر الفولكلورية . وان الوقوف على هذا السياق امر ضرورى لفهم تلك العناصر . ذلك لأن اى دراسة لوظائف العناصر الفولكلورية تقتصر على توجيه الاذهان نحو نصوص تلك العناصر ، دون الاهتمام بالسياق ، تعد دراسة جامدة وقاصرة . فهناك علاقة جوهرية بين النص والسياق ، فالسياق يؤخذ على انه خلفية للنص الذى يعد صلب الدراسة . وما يحدث هو تسجيل النصوص فى البداية ، ثم يوصف السياق الثقافى الذى انتجت فيه تلك النصوص .

ويؤكد بن آموس على انه عند دراسة الأساطير قد يبدو التركيز على النصوص فقط . ولكن امتداد تلك الدراسة لتتجاوز هذه النصوص نحو السياق ، يمكن أن يؤدى الى فهم أكثر اكتمالا للعنصر الشعبى .

ويشير بن آموس الى أن الوصف السياقى يتيح تحليل الاداء الفولكلورى من خلال نسق فنى متكامل فى مجتمع خاص . وهو يؤكد على انه عند دراسة اى نموذج شعبى فى سياقه الاجتماعى ينبغى التركيز على ثلاثة محاور هى : المحاور الشخصية ، المحاور الاجتماعية ، والمحاور الثقافية. وقد استعرض نموذجا مفصلا ليوضح ذلك . ولعل هذا يوضح لنا أن بن آموس يركز اهتمامه الأساسى على عناصر الأدب الشعبى فى الوقت الذى تغاضى فيه عن الاشارة الى اى من العناصر الفولكلورية الاخرى . وهذا

يؤيد ماسبق أن ألمح اليه وليام باسكوم عندما عرض وجهة نظره الخاصة بالاتجاهات النظرية فى علم الفولكلور . كما أن آراءه تعد قريبة من آراء المدرسة البنائية التحليلية . فتاكيده على المحاور الثلاث عند دراسة اى نموذج شعبى فى سياقه الاجتماعى يؤكد ما ينبغى ان يلتفت اليه الباحث من دارسته لأى عنصر من عناصر الأدب الشعبى : فيهتم بالنص ومؤديه ، وبالجمهور الذى يستمع اليه ، ثم بالموقف الذى يؤدى فيه .

ويتطرق هارولد شوب ، الى موضوع آخر يندرج تحت الموضوعات الهامة فى دراسة الأدب الشعبى ، فعند الحديث عن الأدب الشعبى ، يستخدم مصطلح الأداء (performance) بنفس المعنى الذى يستخدم فى الدراما والمسرح . ذلك لأن اى شكل من اشكال الأدب الشعبى، يتطلب وجود مشاهد أو مستمع أو مجموعة من المشاهدين والمستمعين ، وشخص او اشخاص يقدمون هذا الشكل لهم . وعلى هذا فان شوب Schub يوضح هذا الموضوع بطريقة متكاملة فيعرض لتعريف الاداء والمؤدين وطريقة تحقيق التفاعل بينهما ، ويشير الى أن مصطلح « الأداء » ينظر اليه على أنه طريقة خاصة للاتصال فى مجراه الصحيح . ذلك لأن الراوى او المغنى لابد وان يتخذ وضعا معينا لكى يتكامل مع هدفه الذى يريد تحقيقه ، وهذا الوضع له اهدافه الضمنية والظاهرية ، كالتعليم والاقناع والنصح ، وبناء على ذلك تتحدد كيفية الأداء .

كما يشير شوب Schub الى أن الأداء طريقة للاستخدام اللغوى ، وطريقة للكلام . فاللغة والأسلوب ، الى جانب قدرة المؤدى ومهاراته تشترك كلها فى تشكيل النصوص الشعبية المختلفة الى حد كبير . كما يمكن استخدامها لبيان دور المؤدى فى صياغة مادته وتقديمها بصورة تجعل الجماعة تنفعل به . وهو المعيار الذى يتم على أساسه الحكم على نجاحه فى أن يكون مؤديا حقيقيا متميزا .

كما يوضح شوب كيف أن المؤدين يستخدمون الصور والنماذج لاثارة عواطف المستمعين ومشاركتهم . ويشير الى أنهم يتميزون بتلك الاستخدامات التى عن طريقها يؤثرون فى بيئتهم والبيئات الاخرى . هذا وقد استعرض شوب عديدا من النماذج للمؤدين لبعض عناصر الأدب الشعبى فى افريقيا الجنوبية وركز على الشعر الحماسى .

وفى الفصل الاخير يتناول رونالد باومان R. Bauman بالتعقيب على هذه الآراء الواردة فى تلك المقالات ، واكد على أن حدود الفولكلور واسعة بين الدراسات الأدبية والأنثروبولوجية . وعلى اى الاحوال فان هذه الآراء تعكس واقعا أيديولوجيا ينبغى على دارسى الفولكلور فى دول العالم الثالث أن ينتبهوا اليه .